سلسلة حياة
الرسول وأهل بيته عليهم السلام
من المهد إلى اللحد

بسم الله الرحمن الرحيم
وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ
اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ
أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ
صدق الله العظيم

الإمام
علي زين العابدين (ع)



دار المحجة البيضاء

إعداد ومراجعة

احتشدَ المجلسُ. وفي ركنٍ منهُ، اصْطَفّت أسارى الفرسِ مطأطئةً رؤوسهنَّ ذُلاً وقهراً. سوى شابةً واحدة، رفعتْ رأسَها بكبرياءٍ وشموخٍ وأخذَتْ تستعرضُ وجوهَ القومِ بتعالٍ يليقُ بملكةٍ. زفرَتْ بحسرةٍ ثُمَّ تأفّفتْ وأشاحَتْ بنظرِها بعيداً. في سرِّها كانت تَنْدُبُ حظَّها العاثرَ الذي قادَها أسيرةً إلى هذا المكانِ وهي «شاهُ زنان» ابنةُ ملكِ العجمِ.

ويبدو أن اعتدادَها بنفسِها وتعاليها، قد استفزَّ بعضَ الحاضرينَ وأثارَ حنقهم، فاقترحَ أحدُهم بيعَها.

اعترضَ الإمامُ عليّ بن أبي طالب(ع):

ـ «لا يجوزُ بيعُ بناتِ الملوكِ.. ولكن أعرض عليها أن تختارَ رجلاً من المسلمينَ حتّى تتزوّجَ منه».

عُرِضَ عليها أسماءُ كبارِ الصحابةِ وأسماءُ البعضِ من أبنائهم ومن بينِهم اسم الحسين(ع) فاختارَتْهُ زوجاً لها.

اقتربَ الإمامُ عليّ(ع) منها مباركاً والتفتَ إلى ابنهِ الحسين(ع) فقال:

ـ «أحْسِنْ إليها يا بُنيّ... فستلدُ لكَ ذريةً طيبة».



سُرَّ الحسينُ بعروسته الرائعة الجمالِ والرفيعة النسبِ هذه، وقضى معها أجملَ أيام عمرهِ وأحلاها.

بعدَ عام من زواجهما أنجبَتْ (شاهْ زنان) طفلاً جميلاً ساحرَ الطلعة. أسرعَ الحسينُ(ع) إلى أبيه حاملاً لهُ الخبرَ السعيد.

سألَهُ الإمامُ عليّ(ع):

ـ «وهَلْ أسميته».

ـ «لقد أسميتُهُ باسم أحبّ إنسانٍ إلى قلبي».

ابتسمَ الإمامُ عليّ(ع) ونظرَ إليه فأسرعَ الحسينُ مضيفاً:

ـ «لقد أسميتُهُ باسمكَ يا أعظمَ أبٍ في الوجود».

وهكذا مُنِحَ هذا الوليد اسمهُ المبارك (علي) في الخامس من شعبان سنة ٣٨هـ.

لم يَتَسنَّ لهذا الطفلُ أن يعرفَ هناءات الطفولة. فقد وُلِدَ في زمن الاضطرابِ حيثُ وقعَتْ الأمّةُ في الفتنِ وانقلبَتْ فيه أحوالُ النّاس. كانَ جدّهُ يُجاهدُ من أجلِ أن يُعيدَ الأمّةَ إلى الطريق السويّ، وكانَ أعداؤُهُ يقاتلونَ بكُلّ الوسائلِ للحفاظ على مصالحهم وقطفِ مكاسبَ أخرى. كان عصراً مباركاً شاعَ فيه العَدْلُ والمساواةُ المفتقدين، رغمَ ضراوة المعاركِ وأنهار الدماء التي سالَتْ.


أدركَ الطفلُ آخرَ أربعِ سنواتٍ من حياةِ جدِّهِ العظيمِ وهو
يَعمَلُ ليلَ نهارٍ ويقاتلُ يوماً بيومٍ من أجلِ إقامةِ الدولةِ التي
طالما حلِمَ بها رسولُ اللهِ (ص) وإرادتها مشيئةُ الله.

لكنَّ يدَ الغدرِ والجريمةِ امتدّتْ إليه لتغتالَهُ في مسجدِ الكوفةِ، وباستشهادِهِ انطوتْ صفحةٌ مباركةٌ ومجيدةٌ. وابتدأتْ صفحةٌ أخرى مليئةٌ بالآلامِ والعذاباتِ والدمِ في حياةِ هذهِ الأمّةِ وحياةِ هذا الطفلِ.

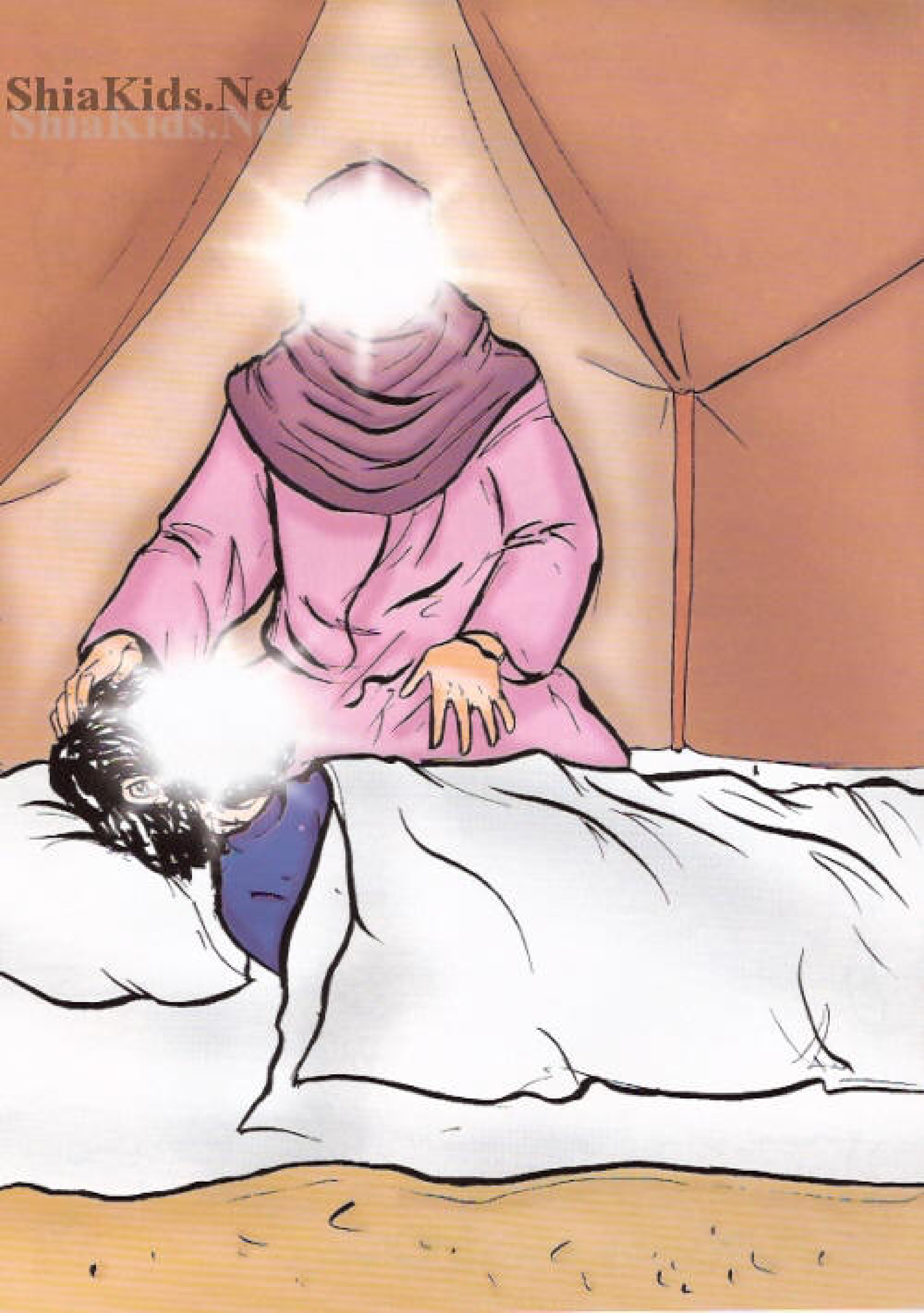
انقضى زمنُ جدِّهِ، ولم ينسَ الطفلُ أبداً، تلكَ اللحظاتِ من عمرِهِ، فلم تفارقْ ذاكرتَهُ صورةُ جدِّهِ، وهو يشملُهُ بعطفِهِ وحنانِهِ. كانَ يلاطفُهُ ويداعبُهُ ويحدثُهُ بأرقِ وأحلى الكلماتِ.

بعدَ وفاةِ جدِّهِ، رأى أبيهِ وقد نفضَ عن ردائِهِ غبارَ المعاركِ، يجاهدُ في ساحةٍ لا تقلُّ ضراوةً يعظُ النّاسَ ويرشدُهم محاولاً قدرَ جهدِهِ تقويمَ ما يطرأُ من انحرافاتٍ، ويهاجمُ بلا هوادةٍ وبشجاعةٍ نادرةٍ الحكمَ الأمويَّ القائمَ على الإرهابِ والقتلِ والبعيدِ كُلَّ البعدِ عن حكمِ الشريعةِ.

بمجيءِ يزيدَ إلى الحكمِ، أدركَ أباهُ أن المقاومةَ السلميةَ لم تعُدْ تُجْدي وأنَّ الأوانَ قد حانَ لخوضِ المعركةِ المؤجلةِ، فحدثَتْ واقعةُ كربلاءِ الداميةِ.

كانَ الشابُ عليُّ بن الحسينِ (ع) يومَها مريضاً، لا يكادُ يستطيعُ النهوضَ على قدميهِ من شدّةِ الإعياءِ والإنهاكِ. ومن فراشِ مرضِهِ كانَ يشاهدُ ويراقبُ ما يحدثُ. كانت سحبُ الغبارِ التي تثيرُها الخيولُ المندفعةُ في ساحةِ القتالِ تحجبُ عنهُ الرؤيةَ.





وعندما هدأتَ الخيولُ وانجلى غبارُ المعركةِ.. شاهد حجم المأساةِ كانت أجسادَ أبيهِ وأخوتهُ وأهلُ بيتهِ متناثرةً في العراءِ. فيما ارتفعتْ عربدةُ وصراخُ القتلةِ احتفاءً بجريمتهم الآثمة. لم يرَ بشراً يومها. بل مسوخاً قد خلتْ قلوبُهم من الرحمةِ وكُلُّ مبدأ نبيل.

ذاكَ المشهدُ، وتلكَ المذبحةُ، حُفرتْ في ذاكرتهِ، ورافقتْ أحداثُها حياته بأجمعها، وكان لا ينفكُّ يبكي ويندبُ أباهُ الشهيد لعشرينَ عاماً بعد الواقعةِ.

عندما انتهتْ المعركةُ، اقتيدَ مع النساءِ والأطفالِ سبايا إلى الكوفةِ. ولم يشفعْ لهُ مرضهُ عند القتلةِ. فقيدوهُ بالسلاسلِ. ودفعوهُ بعنفٍ. وكانت عمَّتهُ زينبٌ ترعاهُ طوالَ الطريقِ.

أُدخلَ إلى مجلسِ «عبد الله ابن زياد» والي الكوفة، الذي استغربَ منْ وجودِ هذا الشابِ بين الأسرى. فسألَهُ بتعالٍ وغرورٍ:

ـ «من أنت؟».

فيجيبُ الإمامُ(ع):

ـ «عليٌّ ابنُ الحسين».

فوجئَ ابن زياد وتساءلَ:

ـ «أليس قتل الله علي بن الحسين؟».

فيردُ الإمامُ(ع):

ـ «كان لي أخاً يُسمّى علياً قتلهُ النّاس».

يغضبُ ابن زيادٍ ويقول:

ـ «بل قتلهُ الله».

فيردُّ الإمامُ بهدوءٍ ويقين:

ـ «الله يتوفى الأنفسَ حين موتها».

تَعجّبَ ابن زيادٍ من صلابةِ هذا الشابِ الذي قُتلَ أباهُ وجميعُ أهله وأمسى وحيداً أعزلاً بلا ناصرٍ ولا معين، يردُ عليهِ بتلكَ الجرأةِ والشجاعة. ولم يرغب ابن زياد ببقائهم في الكوفة. فأمرَ بتسْيرِهم إلى الشام.

في الشام جلسَ الطاغيةُ يزيدُ ورأسُ الحسينِ (ع) بين يديهِ. فأخذَ قضيباً، وأخذَ يعبثُ بالرأسِ المقدّسِ. استنكرَ تصرّفهُ البشعَ أحدَ الحاضرينَ فصرخَ بهش:

ـ «أبعد قضيبكَ فلطالما رأيت رسول الله (ص) يقبّلُ هذا الرأس».

غضبَ الحاكمُ المستبدُ وأمرَ برمي الرجل إلى الخارجِ. أمامهُ جلس عليٌّ ابن الحسينِ (ع) متعجباً من جرأتهِ وشناعةِ فعلتهِ تلك. شرعَ يزيدُ يتحدثُ بزهوٍ وخيلاءٍ عن انتصارهِ الوهميِّ محاولاً أن يدخلُ في عقولِ الحاضرينَ إن الحسينَ (ع) وأصحابهُ لم يكونوا سوى عصابةً خرجت عن الدين وعن حكمِ الأميرِ، وأرادتْ شقَّ صفِّ المسلمين.

كانَ أغلبُ الحاضرينَ، يجهلونَ حقيقةَ ما حدثَ. ويجهلوا من هو هذا الشابُ الأسيرِ. حينها أدركَ عليُّ بن الحسينِ (ع) أن الموقفَ خطيرٌ، وأنَّ تضليلَ يزيدٍ وخديعتهِ قد مرّتْ على النّاسِ. فكان لا بُدَّ من وقفةٍ يعيدُ فيها للعقولِ صوابَها. فنهضَ وبصوتٍ أثقلهُ الحزنُ والأسى خطبَ في النّاس:

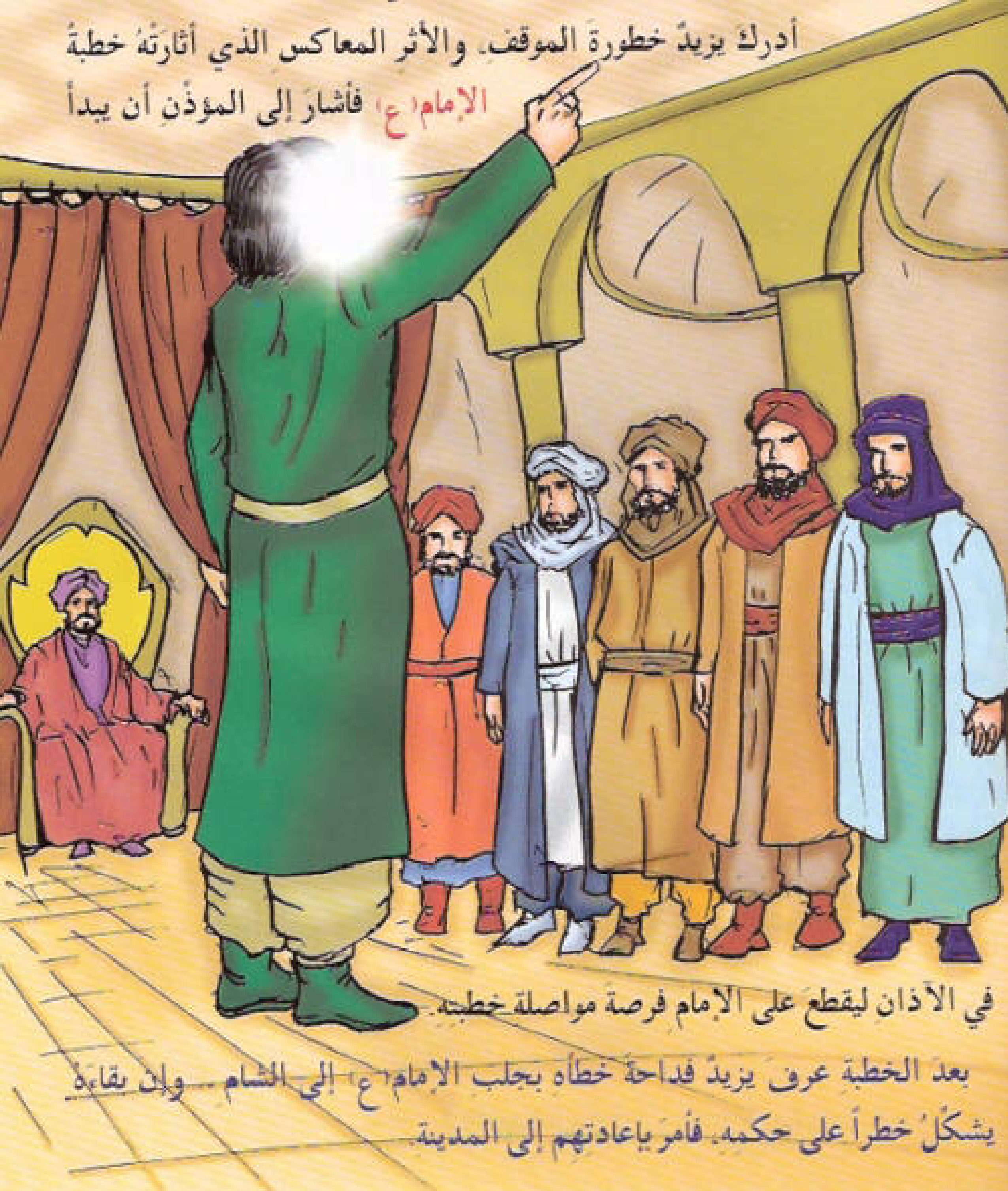
ـ «أيُها النّاس .. مَنْ عرفني، فقدْ عرفني، ومَنْ لمْ يعرفني أخبرتهُ بحسبي ونسبي. أنا ابنُ مكةَ ومنى. أنا ابنُ زمزمٍ والصفا. أنا ابنُ مَنْ حملَ الزكاةَ بأطرافِ الرّدى. أنا ابنُ خيرِ من ائتزرَ وارتدى. أنا ابنُ خيرِ من انتعلَ واحتفى. أنا ابنُ خيرِ من طافَ وسعى. أنا ابنُ محمدٍ المصطفى. أنا ابنُ عليٍّ المرتضى. أنا ابنُ مَنْ ضربَ بسيفين. وطعنَ



برمحين، وهاجرَ الهجرتين، وبايعَ البيعتين، وصلّى القبلتين، وقاتلَ ببدرٍ وحنين، أنا ابنُ فاطمةَ الزهراء....».

ولَمْ يزل يقولُ أنا.. أنا حتّى علا النحيبُ والبكاءُ في المكان.

أدركَ يزيدُ خطورةَ الموقفِ، والأثرَ المعاكسَ الذي أثارَتهُ خطبةُ الإمام(ع) فأشارَ إلى المؤذّنِ أن يبدأ



في الأذانِ ليقطعَ على الإمامِ فرصةَ مواصلةِ خطبتِهِ.

بعدَ الخطبةِ عرفَ يزيدُ فداحةَ خطأهِ بجلبِ الإمام(ع) إلى الشام.. وإنّ بقاءَهُ يشكّلُ خطراً على حكمِهِ، فأمرَ بإعادتِهم إلى المدينة.

ضجّتْ المدينةُ بالبكاءِ يومَ قدومِ الإمام عليّ ابن الحسين(ع) مع أهله تندبُ استشهادَ ابنها الحبيب الحسينُ بن علي(ع).

عاشَ الإمامُ(ع) أربعاً وثلاثين سنةً بعد واقعتِ كربلاء. يؤدّي مهامَ إمامته على أكمل وأحسن وجهٍ. يحاولُ إحياءَ تعاليم الدين الحنيف وتشذيبَهُ مما لحقَهُ به من تزييفٍ وتزويرٍ على يد الحُكّام وأتباعهم.

لم يحمل سيفاً ويحاربُ به الطغاةَ. فلَمْ يكن زمنهُ. كان زمناً قلَّ فيه الناصرُ وانغمسَ فيه النّاسُ في الشهوات. ماتَتْ فيه النفوس الرغبة في الإصلاحِ والجهادِ. وتآلفَ فيه البعضُ مع الذلّ.

لكنَّ الإمامَ(ع) تسلَّحَ بما هو أمضَ من السيف. نَعَمْ تَسلَّحَ بالكلمة الصادقة. يلقيها بوجهِ النّاس ويناهضُ بها الاستبداد. الكلمةُ التي تُحيَ الروحَ المتعطّشةَ إلى النور والفضيلة والإيمان. والكلمةُ التي تُحطّمُ جبروتَ المستبدينَ وتقضُ مضاجعَهُم.

عُرِفَ عن الإمام(ع) تعبُّدُهُ وتهجُّدُهُ. فسُمّيَ بالسجاد لكثرة سجوده واشتهر بزين العابدين لشدّة عبادته وتقواه وخيرشاهدٍ على ذلك صحيفته المتداولة بين أيدينا المعروفة بالصحيفة السجادية. واجتمعَ فيه من الفضائل والمكارم ما يُعجزُ عن حصره. عُرِفَ عنهُ أيضاً تواضعهُ الكبير، ومحبّتَهُ للفقراء. فما أن يهبطَ الليلُ حتّى يخرجَ مُلتثماً يحملُ على ظهره جراباً فيه الطعام والكساء. يلفُ ويدورُ على بيوتهم بيتاً بيتاً. كانَ هؤلاءِ الفقراء يقفونَ على أبوابهم بانتظار مجيئه. وما أن يلمحوهُ حتّى يهتفوا:

ـ «جاء صاحبُ الجراب».





ولمّا توفّي انقطعَ عنهم المؤَنُ فعرفُوا بأنّهُ هو من كانَ صاحبَ الجراب.

وفي عام ٦٣هـ اندلعَتْ ثورةُ المدينة، ثأراً لمقتل الحسين(ع)، ورغبة في التخلص من ظلم وانحراف بني أمية.

فهربَ الوالي الأمويّ إلى الشام، ولم يجد ما يكفي من الوقت لحمل أهله وعياله معهُ، فأودعهُم عند عليّ بنَ الحسين ومعهُ بعضُ عيال بني أمية.

وكانَ موقفاً لم تعرفْهُ لهُ الإنسانيةُ مثلاً. فهاهُم القتلةُ وبعدَ أن ضاقتْ بهم السبلُ، لا يجدون من يحمي أطفالَهُم ونسائهم من غضبِ الثائرينَ إلاّ رجلاً واحداً .. رجلٌ سبقَ لهُم أن قتلوا أباهُ وأخوتهُ وآلَ بيته.. رجلاً أساؤوا إلى أهله وأطفاله وساقوهُم سبايا. وطالما أساؤوا إليه بعدها!!

فوجئ الثائرون، واستغربت المدينةُ لموقفِ الإمام(ع)، لكنّهُ أرادَ أن يعطي البشرَ كلَّ البشر درساً إنسانياً رائعاً في التسامحِ والصفحِ والخلقِ العظيم، فكانت مآثره عظيمةً تناقلتْها الأجيالُ جيلاً إثرَ جيل.

قامَ الإمامُ(ع) برعايةِ عيالِ أعدائه ثلاثةَ أشهرٍ، حتى سُحقتْ الثورةُ فاستُبيحت مدينةُ الرسول(ص) وخُرّبتْ وقُتلَ الآلافُ من أهلها.

بعدَ نهايةِ المعركةِ، جاءَ الأمويون لرؤيةِ عيالِهم، فوجدوهُم بأحسنِ حالٍ.

انقضتْ حياةُ الإمام(ع) بعدَها يعملُ بلا كللٍ لترسيخِ قيمِ الإسلامِ الأصيلةِ، يحثُّ اتباعَهُ على التمسُّكِ بالحقِ والتحلّي بالفضيلةِ، وتجنُّبِ الوقوعِ في الرذيلةِ، يحضُّهم على الإبقاءِ على جذوةِ المقاومةِ والثورةِ التي أشعلَها أبيه الشهيد الإمام الحسين(ع) ومن قبلِه جدّه الشهيد الإمام علي(ع).

لم تكن عيونُ أعدائه تغفلُ عنهُ لحظةً. وكعادتِهم وعندَ تفاقُمِ الخطرِ مهدداً وجودهم، يلجأوا إلى الغدرِ والتصفيةِ الجسديةِ، وفي مؤامرةٍ حاكَ خيوطَها الطغاةُ القتلة، توفي الإمامُ عليٌّ ابن الحسين(ع) عام ٩٥هـ مسموماً، بأمرٍ من الطاغية (الوليد بن عبد الملك).

فسلامٌ عليه يومَ وُلدَ ويومَ ماتَ ويومَ يبعثُ حيًّا.



